رحلة الموت

15 / ديسمبر / شتاء 2011 / سوريا دمشق

بعدما أندلعت شرارة ثورة وأنتفض الشعب ثائراً ومعترضاً على الأوضاع الراهنة التي تشهدها البلاد من تدني المعيشة وارتفاع الأسعار المبالغ بها، وانخفاض ملحوظ بالليرة السورية، بينما في هذه الأثناء كانت أحلام الشباب وطموحاتهم تتلاشى في الهواء وتذهب مع الرياح.

ومن بين هؤلاء كان جابر ابن الحاج عبد اللطيف، ذلك البائع البسيط. في سن الزهور، اثنان وعشرون عاماً، كان على وشك الدخول إلى كلية الطب التي طالما كان يحلم بتحقيق ذلك الهدف منذ طفولته، ولاسيما أنه أنهى مرحلته الثانوية بدرجة تفوق.

ولكن كانت العقبة الوحيدة التي تواجهه وتواجه معظم الشباب في هذا العام سوء الأوضاع وانتشار الفوضى في أرجاء الدولة. وكان والديه حالهم حال معظم الأهالي، يخشون على أبنائهم من تلك الظروف. كان والده يقيّد حريته بعض الشيء، ليس لأنه قاسٍ وإنما خشيةً عليه. كان يدقق على ذهابه وعودته إلى المنزل، ويحذره دوماً أن لا يتأخر ليلاً. وهذا تصرف طبيعي من أب ليس لديه إلا ذلك الشاب الذي يعتبر أعظم إنجازاته في هذه الحياة.

وبعدما قررت الأجهزة المخابرات اعتقال معظم الشباب الذين شاركوا في مظاهرات وحتى الذين لم يتظاهروا، هنا عبد اللطيف انتابه شعور وكأنه عاجز عن حماية ولده الوحيد. قرر أن يهربه خارج البلاد، ولكن جابر رفض ذلك وقرر أن يبقى هنا بجانب والديه. وهذا القرار أغضب والده كثيراً، لدرجة أنه أصبح لا يكلمه ولا يستطيع النظر في وجهه، لأنه رفض نصيحة والده الذي يأمل دوماً أن يعيش ابنه حياة مليئة بالسلام والأمان بعيداً عن الكوارث التي يشاهدها كل يوم.

وفي يوم من الأيام، وسط حالة الطوارئ التي فرضتها السلطات، وفي تمام الساعة الثانية عشرة بعد منتصف الليل، يطرق باب منزلهم وكأن الباب سوف يتحطم من كثرة الأيادي التي تطرق عليه. وهذا بالطبع أفزع العائلة بأكملها. يهرع جابر لكي يفتح الباب، وهنا يصرخ الأب في وجهه، ولكن لا يرفع صوته كثيراً، قائلاً:

– إياك وأن تفتح الباب! اذهب إلى غرفتك ولا تخرج منها إلا عندما أذن لك.

لم يكن لجابر خيار آخر إلا الانصياع لأوامر والده، لأن الموقف لا يحتمل النقاش في هذه اللحظة. ذهب إلى غرفته ولكنه لم يقتنع بذلك التصرف.

ومجرد ما فتح الباب، شاهد أمامه مجموعة رجال متسلحين ببنادق رشاشة. أحد العساكر دفع الأب بيده للخلف، فسقط على الأرض عبد اللطيف، بينما عيونه تملؤها الصدمة. ثم أكملوا طريقهم إلى داخل المنزل، وكانت الأم تقف وجسدها بأكمله يرتعش من شدة الخوف.

ثم بعد ذلك سألهم القائد سؤالاً بطريقة عنفوانية:

– هل يوجد لديكم أبناء ذكور هنا؟

فأجاب الأب أثناء تلعثمه بكلمات يتفوه بها من خلال لسانه:

– لا يا سيدي، ليس لدينا أبناء.

الشيء الوحيد الذي جاء في مخيلته أنه يجب أن يحمي ولده بأي شكل من الأشكال، حتى ولو سوف يكذب على ذلك الكائن الغريب الذي اقتحم منزله في منتصف الليل.

بينما في هذه الأثناء كان جابر يسمع المحادثة التي تدور بين والده وبين القائد، وقرر أن يأخذ قراراً جريئاً وهو أن يقفز من نافذة المرحاض التي تؤدي إلى حديقة منزلهم، ثم يمكنه الخروج من دون أن يشعر به أحد.

اقترب ذلك اللعين نحو الحاج عبد اللطيف وأمسك بثيابه وقال له:

– إياك أن تكون كاذباً أيها العجوز الأحمق، سوف أدفنك مكان ما أنت تقف الآن.

ثم التفت نحو عساكره وأمرهم بتفتيش المنزل جيداً، بينما كان الوالدان يرتعشان من شدة الذعر الذي تعرضوا له.

وبعدما انتهوا من التفتيش، قال أحد الجنود لقائده:

– لا يوجد أحد هنا يا سيدي.

رد القائد:

– حسناً، اتبعوني.

ولكن قبل أن يغادر، قال لذلك الوالد:

– نسيت أن أقول لك، لا أنصحك على الإطلاق أن تراني مرة أخرى.

ومجرد خروج هؤلاء الأوغاد، سارع للاطمئنان على ابنه ولكن لم يجده. حاول الاتصال به، فأخبره ولده أنه تمكن من الهروب وهو الآن في منزل خاله. فحذره والده أن لا يعود في الوقت الراهن.

وفي صباح اليوم التالي، قرر الحاج عبد اللطيف أن يسافر جابر إلى أوروبا عن طريق اليونان، واتفق بالفعل مع أحد المهربين الذي سوف ينطلق مركبه من ميناء اللاذقية الساعة الحادية عشرة ليلاً. اختار ذلك التوقيت لأنه يخشى من الأجهزة الأمنية، لأن تلك العملية غير قانونية وتوجد بها مخاطر كبيرة على المهاجرين. وكان يعلم جيداً ذلك الأب أن تلك الخطوة تعتبر محفوفة بالمخاطر، ولكن ليس لديه خيارات متاحة لحماية ابنه الوحيد.

وبعد محاولات كثيرة لإقناع جابر بالسفر بهذه الطريقة، في النهاية وافق. ولكن كانت خطوة صعبة جداً أن يبتعد عن عائلته، ولاسيما في هذه الظروف.

وفي الليلة الموعودة، رافقه والده ووالدته إلى الميناء لكي يودعونه الوداع الأخير. احتضنه وقبّله، ولكن قبل أن يغادر جابر قال لأبيه:

– أريدك أن تسامحني، لم أقصد عصيانك، ولكن كنت أخشى عليكم أن يصيبكم أي مكروه.

رد الأب قائلاً:

– أنا لم أغضب منك يا ولدي، أنا كنت أخشى عليك أيضاً. أريدك أن تعيش في سلام.

ثم احتضنه ثانياً وصعد إلى ذلك القارب المطاطي، بينما كان يلوح بيده من بعيد.

بعدما انطلق القارب، وبعد نصف ساعة، أصبحت الأمواج تتلاطم ببعضها البعض. وبشكل مفاجئ، ومن دون سابق إنذار، انقلب القارب، وجميع من كانوا على متنه، منهم من ابتلعهم البحر ولم يتبقَ لهم أثر، والقسم الآخر فقد حياته.

وجابر، ذلك الشاب الطموح الذي كان يريد أن يدرس الطب، ولكن ذلك الحلم تبخر مثلما تبخرت بقية أحلامه، وأصبح مصيره لغزاً محيراً إلى الآن، لأن لم يتمكن أحد من إيجاد جثته.